

المديح ودور والدة الإله في الصوم الكبير

سوتيريوس سارفانيس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

بدأ الصوم الكبير المقدس منذ أيام قليلة، وأصبح المناخ مهيباً وحزيناً، كما يليق بهذه الفترة. إنه أجمل وأحلى فصول السنة، حيث تتاح لنا فرصة كبيرة للصلاة والتوبة من جانبنا والتكرس المطلق الذي يجعل هذه الرغبة أقوى.

في حياة العبادة في كنيستنا خدّمٌ جميلة ومهيبة، مثل صلاة الغروب، النوم الكبرى، وكذلك مديح والدة الإله الكلية القداسة التي تمنحنا قوة خاصة خلال هذه الفترة. والسيدة، كما نعلم، هي الوسيط الأعظم لدى إلهنا الكلي الصلاح.

لماذا ربّبت الكنيسة مديح العذراء في الصوم الكبير؟ وما علاقته بآلام الرب وقيامته التي سنختبرها قريباً؟ إن دور السيّدة في حياة كل إنسان عظيم. وهي تشفع لنا لدى الله لخلاص نفوسنا.

ولهذا السبب اختارت كنيستنا دمج خدمة المديح بالصوم الكبير قبل الفصح. وفي هذه الخدمة نتضرع جميعاً إلى أمنا لأن تدعمنا في جهادنا الذي بدأ منذ أيام قليلة. أن تتشفع بنا عند الله من أجل خلاص نفوسنا ومن أجل نهاية سعيدة لهذا الجهاد، ليكون سلمياً وبلا خطيئة، حتى نختبر بنفوس طاهرة آلام ربنا المقدسة والرهيبة ومن ثم قيامته المشرقة. وحضور السيدة في العالم هو أمر عظيم وخالصي في حياتنا اليومية، خاصة في الأحداث الكبيرة كالحرب.

"افرحي يا مَنْ بها يقوم الظفر، افرحي يا مَنْ بها تسقط الأعداء"

هنا تجدر الإشارة إلى حدث تاريخي، كمثال وبرهان على تدخل السيدة الخلاصي في تاريخ العالم: في سنة ٦٢٦، فيما كان الامبراطور هيراكليس (هرقل) مع الجيش الرومي بعيداً يحارب الفرس، وقعت القسطنطينية فجأة تحت حصار الآفار^١ (Avars). رفض الآفار كل اقتراحات وقف القتال، وفي السادس من آب احتلوا كنيسة والدة الإله فلاخرن. وبالتعاون مع الفرس أعدوا الهجوم النهائي، في وقت كان البطريك سرجيوس يقيم زياً حول أسوار المدينة حاملاً أيقونة والدة الإله فلاخرن ويشجع الناس على المقاومة.

في تلك الليلة، قامت ريح شديدة عزّيت إلى التدخل الإلهي، فأثارت عاصفة في البحر ودمرت أسطول العدو، فيما تسبب المدافعون في خسائر فادحة للآفار والفرس الذين اضطروا إلى فكّ الحصار والخروج خالي الوفاض. في الثامن من آب عام ٦٢٦، أنقذت المدينة من أعظم تهديد تعرضت في تاريخها حتى ذلك الحين.

^١ الآفار أو الأواز أو الشعب الأواري هم شعب قوقازي أصلي، يسكنون اليوم في شمال شرق القوقاز وتحديداً في جمهورية داغستان بروسيا الاتحادية والمناطق المجاورة لها من أذربيجان وجورجيا والشيشان.

أراد الناس الاحتفال بخلاصهم الذي نسبوه إلى معونة والدة الإله، فاجتمعوا في كنيسة والدة الإله في فلاخرن. من ثمّ، وبحسب التقليد، ردد الجمهور الواقف ما صار يُعرف باسم "المديح الذي لا يُجلَس فيه"، وهو قصائد شكر للقائدة البطلة للدولة الرومية، ونسبوا إليها النصر ورددوا بامتنان: "يا جنديّة محامية...".

هذا مثال حي على تدخل الفائقة القداسة في تاريخ العالم. إن شفاعتها يمكن أن تفتدي أمماً بأكملها، ناهيك عن أرواحنا، فهي تتوسط أمام الله من أجل خلاصنا، وتخلصنا من أهوائنا. بها "يقوم الظفر" و "تسقط الأعداء" (الدور الرابع).

إنها "مفتاح أبواب الفردوس" (الدور الثاني) و "جسر ناقل الذين في الأرض إلى السماء" (الدور الأول).

نشأة المديح الذي لا يُجلَس فيه وتقسيمه إلى أدوار

ينقسم قانون المديح، الذي أنشئ منذ عام ٦٢٦ م، لإظهار امتناننا العميق للفائقة القداسة (الباناييا)، إلى أربعة أدوار من الحروف الستة للأبجدية اليونانية، وهو معروف بخدمة المدائح، ويُرتل دور واحد في مساء كل يوم جمعة في الصوم الكبير، ما عدا يوم الجمعة الخامس يتم ترتيب القانون بأكمله. وشاعر المدائح هو القديس رومانوس المرنم، أما القانون الذي يُرتل قبل كل دور فقد كتبه القديس يوسف كاتب التسابيح.

الطبيعة الخلاصية للمدائح

من هذا كله نفهم أن وضع المدائح في الصوم الكبير ليس صدفة. إن ما نختبره من بعدها هو حدث رهيب وعظيم ويجب أن تكون نفوسنا نقية لتختبره، وهو الألام المقدسة وقيامه ربنا الأكثر سطوعاً. لهذا نطلب من الفائقة القداسة أن تدعمنا في هذه الفترة بمحبتها وعطفها الأمومي، لتشفع إلى أبنينا السماوي، لكي نكمل هذا الجهاد الذي نتحملة خلال الصوم الكبير، فتكون كل جهاداتنا لخلاصنا بسلام وبلا خطيئة، لنتمتع بملكوت الله.

إن هذا هو ما نعبر عنه في البيت الثالث من الدور الثالث "افرحي يا مفتاح أبواب الفردوس" وكذلك في البيت الأخير من الدور الرابع "أيتها الأم التي ولدت الكلمة الأقدس من كل القديسين، تقبلي هذه التقدمة (القربان)، وأنقذي الكل من جميع المصائب، وخلصي من العقوبة المزمعة الصارخين نحوك: هللونا."

Source: Σωτήριος Σαρβάνης. "Χαίρε, Παραδείσου θυρών ανοικτήριον..." Romfea. 18/3/2016.

<https://www.romfea.gr/pneumatika/7010-xaire-paradeisou-thuron-anoiktirion>